بندلي جوزي

كريم مروة *

يجمــع الباحثــون في التراث العربي ان بندلي جوزي، المفكر الفلســطيني المعــروف عند الخاصة من الباحثــين والمجهول عند الكثرة من مثقفينا، هو أحد رواد البحث العلمي في التراث. أي أنه مختلف في منهجــه في البحــث عن كثيرين ممن أصبحوا أعلاماً في هــذا الميدان الصعب. واختلف في منهجه العلمــي هذا عن الكثيرين من المســتشرقين والمســتعربين، وانتقد بجرأة بعض مواقفهم المتعســفة من التراث العربي، مشــيدا، في الوقت عينه، بآخرين من كبار المســتشرقين والمستعربين الذين تميزوا باجتهاداتهم، وأسهموا، من خلالها في إلقاء أضواء كاشفة على بعض كنوز هذا التراث.

ورغــم أن بندلي جوزي كان قليل الإنتاج، إلا أن هذا القليل من أبحاثه كان شــديد التميز، من دون أن يعني ذلك بالضرورة أن على القارئ أن يتبنى كل أفكاره وكل استنتاجاته. ذلك أن أهمية البحث في ميدان من ميادين المعرفة، لا ســيما إذا كان هذا الميدان صعب الولوج، إنما تكمن في الجهد الذي يبذلــه الباحث، وفي المنهج الذي يســلكه في بحثــه. هنا، بالتحديد، مصــدر التميز في ابحاث بندلي جوزي، ســواء في قراءته لبعض الأحداث الكبرى في التاريخ العربي القديم، الفكري منها والاجتماعي والسياسي، أو في قراءاته لطبيعة الاقتصاد في زمن الدولة الإسلامية في عصورها المختلفة، أو في قراءته لفقه اللغة العربية ولعناصر التطور والتخلف فيها.

فمن هو بندلي جوزي؟

---

* كاتب وباحث لبناني

إنه بندلي جوزي صليبا. وهو اسمه الكامل. وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ ميلاده وفي تحديد تاريخ وفاته. لكن القليلين هم الذين أشـاروا إلى نشـأته وذكروا أنه فلسـطيني من مواليد مدينة القدس، على الأغلب. إلا أن السـائد في تحديد تاريخ ميلاده هو أنه ولد في عام ١٨٧١ وأنه توفي في عـام ١٩٤٢. لكن الجزء الأكبر من حياته قضاه في روسـيا، القيصرية ثم السـوفياتية، (ما يقرب من أربعين عاما) في الدراسـة أولاً كطالب، ثم في التعليم كأستاذ، ثم كباحث في التراث واللغة وفي قضايا اقتصادية واجتماعية وتاريخية.

تلقى علومه في كلية المصلبية (أو دير المصلبية) اليونانية الأرثوذكسـية في فلسـطين، ثم في مدرسـة كفتين بالقرب من طرابلس في لبنان. ومعروف أن المدارس الأرثوذكسـية الروسـية كانت منتشرة في أواخر القرن التاسع عشر وفي الربع الأول من القرن العشرين في مدن لبنان وفلسطين، وأن الكثير من الأساتذة الروس كانوا يمارسون التدريس فيها. وقد التحق بتلك المدارس عدد كبير من الطلاب الذين صاروا أعلاماً في الثقافة العربية، والذين تابعوا دراستهم العليا في روسيا. وكان من أبرز أولئك الطلاب ميخائيل نعيمة وبندلي جوزي. ويؤكد هذا الأمر المسـتشرق الروسي كراتشوفسكي، الذي تعرّف إليه كل من بندلي جوزي وميخائيل نعيمة، وأقاما علاقة صداقة معه.

يقول المؤرخون إن بندلي جوزي سـافر إلى روسـيا لمتابعة دراسته في مدينة قازان. وفي جامعة قازان حصـل عـلى الدكتوراه. وكان ذلك في عام ١٨٩٩. وكان موضـوع بحثه المعتزلة. وقد مكنته معرفته الجيدة باللغتين العربية والروسية من تأليف قاموس عربي روسي لتعليم اللغة الروسية لأولاد العرب المقيمين في روسيا أو الراغبين في تعلمها خارج روسيا. وعمل أستاذاً للآداب العربية في جامعة قازان بعد تخرجه.

كان مهتـما باللغة منذ بدايات تخرجـه من الجامعة. وتناولت أبحاثه اللاحقـة فقه اللغة العربية ومصـادر مفرداتها وعلاقاتها باللغات الأخرى. سـاعده في أبحاثه تلك أنه كان يتقن عدة لغات هي : السريانية والعبرية واليونانية والفرنسـية والإنجليزية والروسية والألمانية. وبعد ثورة أكتوبر عيّن أستاذا للأدب العربي في جامعة باكو، ثم عيّن رئيساً لجامعة قازان.

ورغم أن إقامة بندلي في الاتحاد السوفياتي كانت طويلة إلى الحد الذي اعتبره بعض المؤرخين مستشرقاً روسياً، إلا أنه لم ينقطع عن علاقته بوطنه فلسطين، وبالبلدان العربية الأخرى، لا سيما مصر ولبنان. وقـد زار فلسـطين ولبنان ومصر ثلاث مـرات في أعـوام ١٩٠٩ و ١٩٢٨و ١٩٣٠ . وتعرّف في إحدى

زياراته تلك في بيروت عام ١٩٠٩ إلى المستشرق الروسي- السوفياتي كراتشوفسكي، وكتب عنه وعن أعماله بحثاً في مجلة «المقتطف» المصرية في عام ١٩٣١. وكان يقوم بإلقاء المحاضرات في كل المدن التي زارها. وكان يلقى الاهتمام من مثقفيها. وقد نشر الكثير من أبحاثه في مجلات «الهلال» و«المقتطف» و«النفائس المصرية»، وفي المجلة العلمية التي كانت تصدر عن الجامعة الأميركية في بيروت. وأشرف، خلال زيارته إلى القدس في عام ١٩٢٨، على إصدار أهم كتبه «تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام». ثم صدر له فيما بعد كتاب آخر هو «دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب». كما اشترك مع صديقه قسطنطين زريق في ترجمة كتاب المستشرق الألماني نولدكه عن أمراء غسان. وظل يتابع من باكو ومن قازان في الاتحاد السوفياتي صلاته بالمراسلة مع أصدقائه في فلسطين ولبنان ومصر. وكان يعرف من خلالهم الأحداث التي كانت تحفل بها بلاده في تلك الحقبة من تاريخها المضطرب.

تابع بندلي جوزي أبحاثه في التراث العربي وفي اللغة وفي التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وفي ميادين أخرى، خلال وجوده في حقبتين من تاريخ روسيا، الحقبة القيصرية والحقبة السوفياتية. إلا أن إبداعه الحقيقي تم في الحقبة السوفياتية. إذ كان قد نضج، ونضجت أفكاره، واتسعت معارفه. وتدل كتاباته في تلك الحقبة على أنه تأثر بالفكر الاشتراكي، وصار منهجه في البحث أقرب إلى المنهج الماركسي، من دون أن يترك ذلك المنهج أي تأثير أيديولوجي على طبيعة أبحاثه. إذ كان همه هو إيصال آرائه واستنتاجاته الخاصة بالتراث وباللغة وبالتاريخ إلى القراء العرب والسوفييت والأجانب، بخلاف ما كان قد برز في كتابات بعض المستشرقين، الذين انتقدهم وانتقد خصوصاً الطابع الأيديولوجي المعادي للعرب ولتراثهم الذي ساد أبحاثهم.

لنقرأ هنا بعض ما جاء في مقدمة الطبعة الأولى لكتابه «من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام» في نقد مواقف وآراء بعض المؤرخين الغربيين حول تاريخ الشرق. يقول جوزي في مطلع هذه المقدمة:

«إذا نحن عرفنا أن أول من وضع مبادئ علم التاريخ وأساليب الانتقاد التاريخي هم مؤرخو الغرب كنيبور (Niebhur) ورانكه (Ranke) وشلوسر (Schlosser) وغيرهم، وإن هؤلاء المؤرخين بنوا أحكامهم ونظرياتهم على تاريخ الغرب وحده، إذ لم يكونوا يعرفون من تاريخ الشرق إلا الشيء اليسير، سهل علينا والحالة هذه أن ندرك مقدار ما في أقوال بعض مؤرخي الغرب عن الشرق وتاريخه من الغرابة والطيش. فهل من طيش أكبر من أن يقول أحدهم «أنه لم يكن ولن يكون للأمم الشرقية تاريخ بمعنى هذه الكلمة المعروف بين علماء أوروبا، وإن أساليب البحث التاريخي التي

وضعهـا علماء الغرب لا يمكن أن تطبق على تاريخ الـشرق». وأية غرابة أو بالأحرى أي جهل أعظم مـن أن يقال إن العوامل المؤثرة في تاريخ الأمم الأوروبيـة والنواميس العمومية الفاعلة في حياتهم الاجتماعية هي غير العوامل والنواميس العاملة في تاريخ الأمم الشرقية وحياتهم وثقافتهم».

وكتاب بندلي جوزي المشار إليه هو، في نظري وفي نظر الكثيرين، أهم كتبه، والأبحاث التاريخية فيه هـي أهم أبحاثه على الإطلاق. أقـول ذلك من دون أن أقلل من أهمية أبحاثه في فقه اللغة العربية وفي تأثرها باللغات الأخرى وتأثيرها في تلك اللغات.

ونظـراً لأهمية هذا الكتـاب أود أن أدخل في بعض فصوله، بهدف تعريف القارئ بالقيمة التاريخية لأبحاث مؤلفه. وأستشـهد في تأكيد موقفي هذا برأي المفكر التراثي حسـين مروّة، في المقدمة التي وضعها للكتاب في طبعته الثالثة الصادرة في عام ١٩٨١. يقول مروّة: « إذا رجعنا نصف قرن ونيفاً إلى الإطار الزمني الذي كان يكتب فيه بندلي جوزي دراساته عن هذا التراث، بطريقته المنهجية الجديدة البكر، تيسر لنا أن نسـتوعب القيمة التاريخية الريادية لتلك الدراسات. فهي قيمة باهرة حقا وفق هذا المقياس، أي مقياس الزمن التاريخي نفسه الذي صدرت فيه دراسات بندلي جوزي عن الحركات الفكرية في الإسـلام، وعن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب، ودراسـاته في اللغة وفلسـفة اللغة. وفي ظني أن الرجل كان المتفرد بين الباحثين العرب حينذاك من حيث شـمولية الرؤية، فضلا عن تفرده من حيث منهجية المعالجة . ففي حين كانت وحدانية الجانب تسـود رؤية معظم هؤلاء الباحثـين، كان بنـدلي جوزي يحيط بموضوعه مـن كل جوانبه، لا يتناول جانباً على حسـاب جانب آخر، رغم كونه منحازاً إلى هذا أو ذاك من جوانب المسـألة التي يعالج . فإن انحيازه الفكري، وربما الأيديولوجـي _ ولا أجزم _ إلى حركـة القرامطة، مثلاً، كحركة فكرية أولا، وكحركة اجتماعية ثانيا، لم يكـن (هذا الانحياز) ليحجب عنه رؤية المواقف المتناقضة ورؤية الزوايا غير المضيئة لهذه الحركة، أو ليلعن قياداتها أو بعض الجيوب المثقوبة في هيكليتها..».

يقع الكتاب في خمسـة فصول. يبدأها جوزي بفصل عن الأسـس الاقتصادية للإسلام، تليها الفصول التالية: الإمبراطورية العربية والأمم المغلوبة، حركة بابك الخرمي وتعاليمه الاشـتراكية، الإسماعيلية، القرامطة. وتلي الفصول الخمسة خاتمة. لكن المؤلف يحرص على أن يقدّم في الفصل الأول من كتابه صورة عن الإسـلام مختلفة عن الصورة السـائدة. إذ هو لا يعتبر الإسلام دينا وحسب، بل هو رسالة اقتصادية واجتماعية. يقول: «فقد أصبح اليوم من المقرر أن الإسلام، كغيره من الأديان الكبيرة، ليس فقط فكرة دينية، بل مسـألة اقتصادية واجتماعية معا أو بالأحرى هو مسـألة اقتصادية واجتماعية

أكثر منه فكرة دينية ... ومن فضل مؤسس الدين الإسلامي ومظاهر عبقريته أنه أدرك مصدر الحركة الاقتصاديــة والاجتماعيــة التي ظهرت في أيامه في مكة ،عاصمة الحجاز، وعرف كيف يســتفيد منها ويسخرها لأغراضه السامية، دينية كانت أو اجتماعية.»

أهميــة هذا الاســتهلال في الكتاب أن بندلي جوزي يقدّم فيه للقارئ الشروط التي ســمحت له بأن يستخدم في تحليله للحركات الفكرية في الإسلام منهجه الماركسي الجدلي في قراءة المسار العام لحركة التاريخ، وفي تحديد موقع الأحداث التي جرت في الحقبات المختلفة لهذا التاريخ. وقد قاده منهجه هــذا الى اعتبار أن حركــة بابك الخرمي السياســية والاجتماعية التي ناهض بها الخلافة العباســية، وكذلك حركة الإســماعيلية ووريثتها حركــة القرامطة، اعتبارها جميعها حــركات فكرية واجتماعية تحمل بذوراً اشتراكية تاريخية لزمن قديم.

وفي تحليلــه لحركة بابك الخرمــي الفارسي يرى بندلي جوزي «أنها تختلــف عن غيرها من الحركات الثورية السابقة بأمرين خطيرين: تنظيم الحركة ثم الغاية التي كانت ترمي إليها. أما تنظيم الحركة فيظهر أولا في نجاحها وسرعة انتشارها وثبات أصحابها أمام عدوهم، ثم في إقبال الناس عليها إقبالا غريبا لم نعهده في تاريخ غيرها، واشــتراك عدد كبير من الأمم المجاورة لبلاد الفرس من أكراد وأرمن وروم وغيرهم من قبائل ما وراء القوقاس الصغيرة اشــتراكا فعليا يدل على اتفاق سابق وشعور قوي بالمصلحة العامة.»

ثم يتســاءل عن الأســباب التي حببت إلى تلك الطبقات والأمم المغلوبة الدخول في الدعوة البابكية. ويجيب عن تســاؤله، اســتناداً إلى ما كتبه المؤرخون المســلمون عن حركة بابك، فيقول :» إن أهم العوامل التي ســاعدت على نشر دعوته بين الطبقات والأمم المذكورة لم تكن دينية، ولا سياسية، بل كانت اجتماعية واقتصادية. تؤكد ذلك أفعال بابك وأشياعه يوم كانت القوة في أيديهم، ثم برنامجهم الذي لا نجد فيه أثرا للعوامل الدينية والسياسية.» وهو يميل إلى الاعتقاد « بأن الغرض من الحركة البابكية لم يكن مقاومة الإســلام وذويــه، ولا مقاومة العرب كأمة قائمة منتصبة، كما كانت الحال في الحركات السابقة على حركة بابك في بلاد العجم، بل محاربة ذلك النظام الاجتماعي الذي كانت تئن تحته الطبقات الســفلى من جميع الأمم التي كانت تتألف منها وقتئذ دولة بني العباس، بما في ذلك الأمة العربية نفســها دون أن يشــترك أبناء هذه الأمة فعلا في الثورة البابكية. ذلك أن بابك وأتباعه كانوا يرمون إلى هدم ذلك النظام المســتند إلى أصحاب الأملاك (الدهاقين) ورؤســاء الدين والجيوش المســخرة المأجورة، وابداله بنظام جديد ليس فيه طبقات، ولا نزاع مســتمر بينها، ولا ظالم ومظلوم،

ولا غني وفقير، ولا سيد وعبد، ولا كبير وصغير، إبداله بنظام مبني على العدل والإخاء والمساواة.»

يتابع بندلي جوزي تحليله للظاهرة البابكية فيؤكد ما سبق أن قاله «بأن برنامج بابك ومازيار وسائر اشـتراكيي أذربيجان وطبرستان كان يحتوي على مسائل اجتماعية واقتصادية فقط، يكمن جوهره في مسـألتين أساسيتين هما: ١- نزع الأراضي الواسعة من أربابها الذين اغتصبوها سابقا من الفلاحين أو الدولة، وتوزيعها مجانا على المزارعين المحتاجين إليها. ٢- تحرير المرأة الشرقية، الإيرانية على الأقل، من عبوديتها الأبدية، وإعطاؤها أهم ما للرجل من حقوق.»

وإذ يعتبر الكاتب أن الإسـماعيلية – وهي في أصولها وجذورها تعود إلى الشـيعة العلوية كما يقول - هي اسـتكمال في المسألة الاجتماعية لبرنامج بابك الخرمي، فإنه يرى اختلافاً بينها وبين البابكية في الأهداف السياسية والدينية. لكنه يعتبر القرامطة جزءاً متفرعاً من الإسماعيلية ومكملا لها، لكن في ظروف وفي أشـكال وفي أغراض مختلفة. ولعل الحركة القرمطية، في نظر الكاتب وفي نظر كثيرين، هي الأكثر وضوحا في برنامجها الاجتماعي، والأكثر ثباتا واستقرارا، والأكثر اتساعا في حركتها في مواجهة الخلافة العباسـية. إذ هي اسـتطاعت أن تقيم لها نظاما سياسـياً ودولة وجيشا، وأن تضع برنامجاً اقتصاديا اجتماعيا لعله الأكثر وضوحا بين تلك الحركات. ومعروف تاريخياً أن البحرين وعمان كانتا من المراكز الأساسـية لدولة القرامطة، التي أقاموا فيها نظامهم قبل أن يتم سـحق هذه الدولة من قبـل جيش الخلافة بعد سـنين طويلة من الحروب. ويقول جـوزي، في شرح برنامج القرامطة، على لسـان أحد المؤرخين « أن حماداً (زعيم القرامطـة)، بعد أن بنى «دار الهجرة» ورتب أمورها، عرض على من أحب ممن دخل في دعوته أن يؤدي ضريبة أخرى سـماها «البلفة». وهي ضريبة خاصة كان يؤديها كل من أراد أن يشـترك في «عشـاء المحبة» (Agapi) ، أي أن يأكل من «خبز الجنة»، أو كما سماه حماد نفسه « غذاء اهل الجنة» الذي كان يأتيه من إمام الزمان تواً. وزاد بعض الكتبة أن حماداً، بعد أن وضع على أصحابه «البلفة»، دعاهم أن يؤدوا لدار الهجرة خمس ما كانوا يملكون أو يكتسبون، فلبوا دعوته راضين، ثم قدروا أملاكهم ودفعوا عنها الخمس فرحين، حتى كنت ترى المرأة تقدم للداعي خمس غزلها، والفاعل خمس أجرته. فكانت هذه الضريبة قسـطا يدفعه الشخص إلى صنـدوق الاخوية. إلا أن حماداً لم يكتف بهذه الضرائب، بل أمر أهل القرى التي دخلت في دينه أن يحملـوا إلى محـل واحد كل ما يملكون. فلما جمعوه جعله مشـاعاً بين الأعضاء يتولى توزيعه رجل منهم ذو ثقة. فكان يجمع ما يحضره الأعضاء من أثاث وحليّ وثياب ومأكولات ومال، ثم يوزعه على المحتاجين من القرامطة. حتى لم يبق بينهم فقير. فكنت ترى الرجال منهم يشتغلون برغبة ونشاط،

والنســاء يحملن إلى «بيت الجماعة» ما كنّ يكسبنه من المال، حتى أن الأولاد الصغار أنفسهم كانوا يقدمون إلى مدير البيت ما كانوا يأخذونه من الجعالة من أصحاب البســاتين التي كانوا يحرســونها في النهار ويطيرون الطير عن أشجارها وبقولها، حتى لم يعد أحد يملك لنفسه إلا سيفه وسلاحه».

هذه الإشارات التي قدمتها حول كتاب «تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام» تبين بوضوح منهج بندلي جوزي في قراءة التاريخ وفي تحليل أحداثه. وهو منهج ماركسي يقوم على قاعدة المادية التاريخية. ورغم أهمية البحث والتحليل اللذين استند إليهما الكاتب، واللذين قدمنا نماذج منهما، فإن السؤال الــذي يمكــن أن يطرح اليوم هــو بالتحديد: ما مدى دقة هذا المنهج في قــراءة ذلك التاريخ القديم وأحداثه؟ وهو سؤال لا جواب عندي بشأنه. علماً بأنه كسؤال مشروع لا يقلل مقدار ذرة من الطابع الريادي في أبحاث بندلي جوزي التاريخية المتصلة بتلك الحقبة من تاريخ الإسلام.

غير أن لبندلي جوزي كتاباً آخراً لا يقل أهمية عن الكتاب الذي توقفنا عنده في السطور السابقة، هو الكتاب الذي ضمّ عدداً من أبحاثه ودراساته التاريخية والاقتصادية واللغوية. وقد عمل على جمعها والتقديم لها كل من ناجي علوش وجلال السيد. وصدرت هذه الدراسات في كتاب عن دار الطليعة في عام ١٩٧٧. تشــير بعــض فصول الكتاب إلى اســتمرار اهتمام بندلي جــوزي بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للإســلام. فهو يقدم أبحاثاً جريئة حول الخراج في الإســلام، وحول السياســة الاقتصادية للخلفــاء. ويتوقــف عند الأمويين في عدة فصــول. ويفرد ثلاثة فصول لمســيلمة الكذاب. ولا أرى ضرورة للخوض في كل من هذه الدراسات، لأن المهم، من وجهة نظري، في ما رمى إليه بندلي جوزي في مجمل كتاباته حول تاريخ الإســلام، لا يتصل بالجانب الديني في الإســلام بقدر ما يتصل بالجانب الاقتصادي والاجتماعي. وهو ما ظهر بوضوح في كتابه الأصلي «تاريخ الحركات الفكرية في الإســلام» الذي عرضنا له في مطلع هذا البحث.

أما اهتمام جوزي باللغة، وبفقهها وبمظاهر التقدم والتخلف فيها، فهو موجه إلى أصحاب الاختصاص في الدرجة الأولى. وهو لذلك يدخل في أبحاثه اللغوية تلك في ســجال مع لغويين معروفين، فيختلف معهــم في أمــور، ويدقق لغويــاً وتاريخياً في أمور أخــرى تتصل خصوصاً بجــذور الكلمات العربية وبأصولهــا. وهو يؤكد في بحــث بعنوان «مواد لغوية» حاجة اللغــة العربية إلى وضع معجم كبير، بالاشتراك مع علماء اللغة من المستشرقين الذين سبقونا إلى البحث في فلسفة لغتنا وفي أصولها. وهو يقترح على علماء اللغة العرب الاســتعداد للاشتراك مع المستشرقين في وضع هذا المعجم، ويدعوهم إلى الاهتمام بالأمور التالية:

• جمع مواد لغوية معجمية جديدة ربما لم ينتبه إليها جامعو أوسع وأقدم معاجمنا.

• البحث عما وقع سهواً أو جهلاً في معاجمنا القديمة والحديثة.

• البحث في تاريخ اصطلاحاتنا العلمية والفنية والدينية وسواها وزمن ظهورها في اللغة العربية.

• البحث والتدقيق في أسماء كثير من الحيوانات والحشرات والأسماك والطيور والنبات وغير ذلك مما اقتصرت، ولا تزال تقتصر، معاجمنا في تعريفه على قولها : نوع من كذا وكذا إلخ ..

• البحث عن الألفاظ الدخيلة في العربية وطرق وزمن انتقالها إلى لغتنا.

• بيان عما دخل في معاجمنا القديمة عند جمعها من اللهجات ولغات القبائل.

ويقــول الكاتب في بحث آخر في الكتاب بعنوان «صفحات من تاريخ التمدن عند العرب : المفردات اللاتينيــة في اللغــة العربية»: «كان وما يزال بعض الناس يظن أن جزيرة العرب قبل الإســلام كادت تكون عالما مستقلاً لا علاقة لها تذكر بالأمم المجاورة لها، وانها لم تتأثر بالثقافة الأجنبية، ولم تؤثر فيها إلا في أشياء وأحوال محصورة، وذلك لقلة الروابط بينها وبين سائر الأمم المتحضرة القديمة، وصعوبة المواصــلات الناتجــة عن فقد الأمن في البلاد العربية، ووعوثة الطــرق، ولقلة ما كانت تصدره البلاد العربية من البضائع، ولبعد المسافة بين أسواقها الداخلية وأسواق البلاد المجاورة لها. إلا أن البحوث العلمية الأخيرة عن تاريخ العرب قبل الإسلام والآثار التي عثروا عليها في بلاد اليمن وغيرها دلت على أن الأمــر عــلى عكس ما يظن من اعتزال جزيرة العرب عن الحركة التجارية العالمية التي هي أعظم عوامــل التعارف والتقارب بين الأمم مهما بعدت بلادها وتعددت صعوبات الوصول إليها. فقد تبين من بحوث العلماء أنه كانت لجزيرة العرب علاقات تجارية عمرانية وتاريخية دائمة مع ســائر الأمم المجاورة لها، بل بعض البلاد البعيدة عنها كالهند. فقد كانت تأتيها البضائع من بلاد العجم وما بين النهرين والولايات البيزنطية. وكنت ترى في أســواقها السنوية ولا سيما سوق عكاظ تجارا وغير تجار من البلاد المذكورة. والقرآن نفســه يشــهد أنه كان لتجار مكة رحلتان في الصيف والشتاء، إحداهما إلى ســورية وفلسطين والأخرى إلى جنوب جزيرة العرب، فضلا عن رحلات تجارية أخرى. أما الأفراد الذيــن كانوا يأتــون البلاد العربية لغير التجــارة كالهرب من الاضطهادات الدينيــة التي كان يثيرها عليهــم رجال الدين والملــك، أو كطلب الرزق، فأمرهم معروف. كما أن بعض ســكان مكة وغيرها قبيل الإسلام ســاحوا في الولايات البيزنطية الشرقية، بل زاروا عاصمتها ليقتبسو من الثقافة اليونانية

والرومانيــة ويقفــوا فيها على الحركة الدينية التي كان يبلغهم صداهــا.» وفي الكتاب فصول أخرى تستحق التوقف عندها بعمق.

ورغم أن كتابات بندلي جوزي كانت قليلة فإن ما نشر منها، وما تضمنته الكتب التي توقفت عندها، يشير إلى أهمية هذا المفكر الفلسطيني وإلى دوره الريادي في البحث العلمي الجريء في تاريخ العرب القديم، السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، بما في ذلك بحثه في اللغة وفي فقهها وأصولها.